جمالية الرمز الصوفي في شعر الششتري

أ. فاتح حمبلي
جامعة أم البواقي

-الششتري و مذهبه في التصوف :

ملخص المقال :

يسعى المقال الى استجلاء الدلالات المضمرة في بعض الرموز الشعرية ، التي استند عليها الشاعر الاندلسي ابو الحسن الششتري ، في التعبير عن تجربته الشعرية الصوفية من خلال توظيفه لرمز الخمرة، و رمز المرأة ، و كيف تمكن الشاعر من تطويع اللغة في اضفاء عناصر الجمالية المختلفة على أسلوبه .

توطئة :

يبدو أنَّ الششتري لم يلتزم بمذهب واحد في التصوف فقد كان في شبابه وبداية حياته مدينيا في طريقته الصوفية، حيث تأثر (بأبي مدين الغوث) عندما كان يحضر حلقاته ببجاية، ومعلوم أنَّ مذهب (أبي مدين) في التصوف هو مذهب سني، كما يؤمن بوحدة الوجود.

بعد لقاء الششتري بـ (ابن سبعين) وملازمته له اتجه إلى اعتناق المذهب الصوفي الفلسفي القائل بوحدة الوجود في صورته المجردة، وهو مذهب يفوق مذهب (ابـن عربي)غلوا في اعتبار الوجود واحدا سواء كان هذا الوجود هو الله أم الإنسان فإنه واحد في مظهره وجوهره.

وقد بلغ من تأثير (ابن سبعين) في تصوف الششتري أنه نعته في بعض أشعاره بمغناطيس النفوس، وإكسير الذوات، ويُروى أنَّ (ابن سبعين) صاح يوما في وجه الششتري قائلا له " إنْ كنت تريد الجنة فاذهب إلى (أبي مدين) وإن كنت تريد رب الجنة فهلم إلي" [1] .

وفي مصر يعتنق الششتري مذهب الشاذلية في التصوف بعد لقائه بتلاميذ (أبي الحسن الشاذلي) صاحب الطريقة الصوفية السنية الشهيرة وما يفيد ذلك تحوله إلى مذهب الشاذلية قوله في بعض أزجاله[2]

شيوخي هم شاذلية

وقد عُدَّ فيما بعد الششتري من أهم رجال الطريقة الشاذلية في التصوف فشوقي ضيف[3] ينفي عنه إيمانه بوحدة الوجود، ويبرئه منها غير أن موشحاته وأزجاله تطفح بالمقولات الصوفية التي تصب كلها في المبدأ الفلسفي القائم على وحدة الوجود .

شعره :

للششتري ديوان شعر ضم الكثير من القصائد والمقطوعات القليل منها نظم حسب الطريقة التقليدية الخليلية ، والكثير منها نظم في شكل موشحات وأزجال، نظرا لأن هذا اللون الشعري أكثر طواعية في التعبير عن وجدان الصوفية، وأسهل في تلحين أشعارهم وإنشادها في المجالس والأسواق .

بلغ عدد المنظومات التي احتواها ديوان الششتري حوالي (150) منظومة بين قصيدة ومقطوعة يضاف إلى ذلك عدد لا بأس به من الموشحات والأزجال المشكوك في نسبتها إليه .

يُضاف إلى ما خلفه الششتري من أشعار تفيض بالرمز الصوفي، ترك لنا أيضا مجموعة من المؤلفات في علم التصوف والسلوك والفقه منها (العروة الوثقي في بيان السنن)، (ما يجب على المسلم أن يعتقده إلى وفاته)، (الرسالة القدسية في توحيد العامة والخاصة)، (المراتب الإسلامية والإيمانية و الإحسانية) [4]

- تجليات الرمز الصوفي في موشحات وأزجال الششتري :

تُمثل الرموز الصوفية حضورا قويا في أشعار الششتري، إذ تضفي على نصوصه ألوانا من الحركة والانفتاح، تجعل المتلقي يرحل مع الشاعر في رحاب المقامات الصوفية، ويحلق معه في فضاءات الروحانية. و لذلك يحق لنا أن نتساءل :

لماذا تتكئ التجربة الصوفية الشعرية عند الششتري على الرمز ؟

الرمز عند الشعراء الصوفيين يُعد من أكثر الأدوات الفنية قدرة على النفاذ إلى العوالم الباطنية الخفية في النفس البشرية ،وتمثيلها بما يعادلها من المحسوسات، بينما تقف اللغة العادية عاجزة عن التعبير عنها والإفضاء بها.

ربَّما يكون من المفيد في هذا المقام الإلمام بشيء من الإيجاز لمفهوم الرمز في الكتابة الشعرية الصوفية ،فالرمز في اللغة يعني الإشارة[5] ، ذلك أن الإشارة طريق من طرق الدلالة ،وهي دلالة سريعة وخفية لأن المتكلم كما يقول قدامة بن جعفر عندما يستعمل الرمز في كلامه : " إنما يريد طيه عن كافة الناس والإفادة به إلى بعضهم، فيجعل للكلمة أو للحرف اسما من أسماء الطير أو الوحش أو سائر الأجناس، أو حروفا من حروف المعجم، ويطلع على الموضع من يريد إفهامه، فيكون ذلك قولا مفهوما بينهما مرموزا عن غيرهما ... وفي القرآن من الرموز أشياء عظيمة القدر جليلة الخطر وقد تضمنت علم ما يكون ... ورمزت بحروف المعجم وبغيرها من الأقسام كالتين والزيتون ،والفجر والعاديات، والعصر والشمس، وأطلع على علمها الأئمة المستودعون علم القرآن"[6]

و يرى (ابن رشيق القيرواني) أنَّه ليس هناك فرق بين الرمز و الإشارة فكلاهما لمحة دالة واختصار « وتلويح يعرف مجملا ومعناه بعيد من ظاهر لفظه "[7]

يستعمل الصوفيون في كتابتهم الرمز فيما بينهم قصد كشف معانيه لأنفسهم فقط ،والإخفاء والستر على غيرهم من الأجانب ،حتى لا تشيع أسرار هذه الرموز في غير أهلها ،فمعاني هذه الرموز أودعها كما يصف (القشيري) " الله قلوب قوم واستخلص لحقائقها أسرار قوم "[8] فإذا كانت طبيعة الرمز الصوفي على النحو السابق من الغموض، فإنها تحتاج في فهمها إلى التأويل ، والغموض في الرمز خصيصة جمالية تستعصي على الفهم [9] بسهولة ،

ولا ينقاد معناها لصاحبه إلا بعد مماطلة منه على حد تعبير(عبد القاهر الجرجاني) ، فإذا " نيل بعد الطلب له ،أو الاشتياق إليه ،ومعاناة الحنين نحوه كان نيله أحلى ،وبالميزة أولى فكان موقعه من النفس أجل ، وألطف وكانت به أضن وأشغف" [10]

إذن فاللغة الصوفية في الكتابة الشعرية لا يؤخذ بظاهرها ، وإنما تحتاج إلى فك رموزها وتأويل دلالتها البعيدة ، فهذه اللغة تظهر في دلالتها المباشرة للوهلة الأولى كأنها منفتحة على ثقافة المتلقي زمانا ومكانا ، وهو قادر على تأويلها والتعبير عنها، ولكنها في حقيقة الأمر ترتبط بمصطلحات التصوف، وتاريخه وثقافته، والمناخ الذي ترعرع ونما فيه، فضلا عن تفرد تجربة المتصوف نفسه .

هذا عن الرمز في الكتابة الصوفية ، فماذا نعني بمصطلح الصوفية؟

باختصار أن الصوفية مصطلح اشتقاقه اللغوي من الصوف لأن لبس الصوف رمز لحياة الزهد والتقشف والخشونة[11]

كما كان لباس النبيين من قبل، فقد روي عن الرسول (صلى الله عليه وسلم) أنه خرج ذات يوم " وكان عليه جبة من الصوف من جبات الروم" [12]

وقيل الصوفية من الصفة وهم جماعة من أهل الصفة في عهد الرسول (صلى الله عليه وسلم) انقطعوا إلى عبادة الله، وقد بنى لهم الرسول(صلى الله عليه وسلم) صفة في مؤخرة مسجده بالمدينة ليقيموا بها، فانقطعوا في صفتهم إلى الله يسبحونه

بالغداة والعشي"[13] وقيل الصوفية لأنهم " في الصف الأول بين يدي الله عز وجل، لارتفاع هممهم ولإقبالهم على الله بقولهم ووقوفهم بسرائرهم بين يديه "[14]

فالتصوف بشكل عام هو اتجاه فكري، وعقدي وفني، يتميز عن غيره من المذاهب، ظل مفهومه يتطور تاريخيا مستفيدا من حركة الصراع الفكري، والفقهي في العالم العربي والإسلامي، ولهذا تعددت مفاهيم التصوف ،وتعددت تعاريفه ، وإن اتفقت في الجوهر. وعليه فالتصوف عندا الباحثين المعاصرين هو علم البحث عن الله، وهو ما صاغه القوم بلغة أخرى حين قالوا " بأنه السلوك إلى ملك الملوك" [15]

إنَّ جمالية الرموز الصوفية في الكتابة الشعرية تقوم على التفريق بين معرفتين في تعاملها مع الوجود : معرفة عقلية، ومعرفة قلبية . ويميز (محي الدين بن عربي) بين المعرفتين في قوله:

"كل علم إذا بسطته العبارة حسن وفهم معناه فهو علم العقل النظري – أما علم القلب – فهو علم الأسرار – إذا أخذته العبارة سمج وإعتاص على الأفهام دركه، وخشن، وربما مجته العقول الضعيفة المتعصبة. ويسمى أيضا بعلم الأحوال، ولا سبيل للعقل إلى إدراكه، فسبيله هو الذوق الذي لا يعرف إلا بالتجربة كالعلم بحلاوة العسل ومرارة الصبر ولذة الجماع والعشق والوجد والشوق فهذه علوم من المحال أن يعلمها أحد إلا بأن يتصف بها ويتذوقها " [16]

فالتجربة الصوفية إذن – تقوم على المكاشفة التي توجد بين الذات العارفة والشيء المعروف، ذلك أن الوجود في الرؤية الصوفية ليس موضوعا خارجا يدرك من الخارج بواسطة العقل، فالعقل أداة قاصرة، فهي أشبه ما يكون بالعين التي تحدق في الشمس لكي تراها فيعميها البريق والتوهج إنها لا تزيد الرائي إلا جهلا على حين معرفة القلوب ،هي معرفة الوجود من داخله، فهي تلغي المسافة بين الوجود والعارف، وتتيح له تحقيق ذاته ، فلا يعرف الوجود إلا بالشهود أو بالحضور أو الذوق أو الإشراق وكلها مصطلحات صوفية .

إذا عدنا إلى ديوان الشاعر الششتري وجدناه حافلا بالرموز الصوفية المتنوعة، التي وظفها في نصوصه بشكل واضح وجلي ومن الصعوبة بمكان في هذا المقام حصرها، وتتبع دلالاتها، فهي كثيرة ومتناثرة في موشحاته وأزجاله، ولذلك سنخصص الحديث عن هذه الرموز التي اعتمدها الششتري في التعبير عن تجربته الصوفية ذات الطابع العرفاني ويأتي في مقدمة هذه الرموز رمز الخمرة ورمز المرأة .

أ- رمز الخمرة :

استقى الشعراء الصوفيون رمز الخمرة من التراث الشعري العربي القديم، فقد كان شعراء اللهو والمجون يتغنون بالخمرة فيصفون لونها وأباريقها وسقاتها وكيفية شربها فاستعار الشعراء الصوفيون التعابير المصاحبة لشرب الخمرة، فوصفوا حالة السكر وما ينجم عنها من انتشاء وانبساط وفقدان للوعي. فالخمرة عند الصوفية رمز للمحبة الإلهية التي لا يرتوي منها شاربها أبدا فيشربها الصوفي فتحدث فيه أثرا عجيبا وهو السكر الذي يصل به إلى نشوة الحب الإلهي وقد اصطلح الصوفية على الحالات المصاحبة للسكر فسموها بالشطح وهو فيض حاد من نشوة الحب الإلهي يغمر قلب الصوفي فيخرجه عن وعيه .

وقد أورد القشيري في رسالته أن (يحي بن معاذ الرازي) (ت 258 هـ 854 م) كتب إلى أبي يزيد البسطامي (ت 261 . 877 م) قائلا له : " ههنا من شرب كأسا من المحبة لم يظمأ بعدها ، فكتب إليه أبو يزيد عجبت من ضعف حالك ههنا من يحتسي بحار الكون وهو فاغر فاه يتزيد " [17]

فنشوة الخمرة عند الصوفية لا حدود لها فهي تشبه إلى حد كبير نشوة السكر الحسي ، وقد ميز الصوفية بين مراتبها الأربع (الذوق والشرب والري والسكر) وتمثل هذه المراتب أحوالا ومقامات عرفانية قائمة على الاستبطان الذاتي، وتشيع هذه المصطلحات والرموز الصوفية بكثرة في أشعار الششتري، من ذلك قوله في إحدى موشحاته المشبوبة بطابع الرمز العرفاني [18]

خلعت عذارا عشقي في غرامي وهمت وقد حلا عندي هيامي

بمن أهوى وكاسات المدام

مذهبي دني لائمي دعني الهوى فني

ببذلي في الهوى روحي ومالي عشقت فمالي عذالي ومالي

نلاحظ في الأبيات السابقة شيوع الرموز الصوفية ،التي استعارها الشاعر من قاموس الخمريين والعشاق ، فتعاطي كؤوس المدام لا تروق لشاربها إلا في رحاب المحبة الإلهية، وخمرة الحب الإلهي ليس شرابا عاديا، بل هي رحيق صاف يبهج به الشاعر روحه حتى يكشف حجب الصفات بأسرها، ويتخلص من ربقة التكاليف كلها، ومن ثم يندفع في التعبير عن حال الانتشاء بالخمرة غير مبال بما يبذله في سبيلها من روحه وماله.

ويقول الششتري في بعض أشعاره ملوحا بالخمرة كرمز لا يقل جمالية وسحرا عن رمز الطبيعة ، والمرأة عند المتصوفة، فخمرة الشاعر هي خمرة الحب الإلهي من أصل قدسي عتقت في الدنان من قبل خلق آدم ، أصلها طيب من الطيبات التي أحلها الله لعباده يقول.[19]

طاب شرب المدام في الخلوات أسقني يا نديم بالآنيات

خمرة تركها علينا حرام ليس فيها إثم ولا شبهات

عتقت في الدنان من قبل آدم أصلها طيب من الطيبات

أفتني أيها الفقيه وقل لي هل يجوز شربها على عرفات

أو يجوز القرآن والذكر بها أو يجوز التسبيح في الصلوات

فأجاب الفقيه إن كان خمر عنب فيه شيء من المسكرات

شربه عندنا حرام يقينا زائد فيه شيء من الشبهات

آه ياذا الفقيه لو ذقت منها وسمعت الألحان في الخلوات

لتركت الدنيا وما أنت فيه وتعش هائما إلى يوم الممات

فكل من يتأمل الأبيات السابقة يدرك جمالية لغة التصوف القائمة على تشكيل الألفاظ والتراكيب تشكيلا جديدا من خلال إعطاء حوار الصوفي الفقية بعدا إشاريا ،وإيحائيا يضفي على النص الشعري لغة ذوقية روحانية أساسها الجذب والفيض والرمز .

وتقترن فكرة الفناء في الذات العليا بحال السكر عن الصوفية ،حين تتحد روح الشاعر الصوفي بالوجود ، فتفنى فيه فيصبح الكل واحد والواحد هو الكل ، وهذا الذي يعبر عنه بوحدة الوجود عند أهل التصوف ، فالششتري يستحضر في شعره هذه الرموز الخمرية وهو يعانق الذات الإلهية في شوق وهيام غير آبه بالخليقة ، التي لا ترقى أفهامها إلى إدراك لغة المتصوفة الموجهة في أساليبها وألفاظها توجيها يختصون به في الفهم دون غيرهم ، ولهذا قال الحلاج : " من لم يقف على إشارتنا لم ترشده عباراتنا " [20]

يتضح مما سبق أنَّ الشاعر الصوفي يستخدم لغة خمرية لكنه يمنحها وظيفة مغايرة لوظيفتها المألوفة، بما يصبغها عليها من تجليات روحية، ومفارقات رموزه وألفاظه تتجاوز المستوى المعجمي اللغوي لها وتستلزم على المتلقي التأمل فيها للوصول إلى ما تحمله من معطيات عرفانية، والاندماج الكلي في تقاطعات الرمزية لتلك اللغة، ولا يتأتى هذا الاندماج إلا بالقدرة على تأويل الرموز الصوفية وإدراك منابتها المعرفية ومناخها الفلسفي ، بعد محاولة تذوق وتمثل التجربة الصوفية الخاصة بكل شاعر صوفي على حده .

ويسكرنا الششتري مرة أخرى بخمرته النورانية في موشح آخر قائلا : [21]

طاب نقلي وشرابي وحبيبـي إعتنابي

فاعذروني يا صحابي في سجودي وإقترابي

خمرة راق شذاها كل نور من سناها

قام ساقيا سقاها إجعلوها إحتسابي

أنا سكران من هواه ليس لي راح سواه

كلما ناديت يا هو كان لبيك جوابي

ففي النص السابق نشعر بنغمة خفيفة تحرك وجداننا في لطف نابعة من إيقاع الألفاظ وموسيقاها تتماوج ألحانها في فيض من العواطف الشفافة ، متناغمة ومتسقة مع المشاعر، ولا شك أن هذه الألحان ما وجدت عند المتصوفة إلا لتنشد وتغني في مجالس ذكرهم .

ويبدو أن النداء في قول الششتري يا هو " بصيغة نداء الضمير الغائب هو ضرب من الشطح المتولد عن حالة السكر، تنشأ للمتصوف من مشاهدة الجمال المطلق ومطالعة تجلياته في قلبه، ويكون هذا الشطح عادة مصحوبا بالدهشة والغبطة والهيمان، والوله ، وكلها ظواهر يطيش معها العقل، وينطمس نوره تحت تأثير الوارد الروحي المغيب في الوجد الإلهي [22].

فالشطح هو الحال التي لا يملك الصوفي أثنائها أن يكبح جماح وجده ومن ثم ينطلق معبرا بلغة الشطح عما يجيش بداخله دون وعي لكلمات غريبة وعبارات غير مألوفة نابعة عن لغة العشق [23].

ويشترط على المتصوف للوصول إلى الشطح شروط عدة لخصها عبد الرحمان بدوي في [24]

- شدة الوجد .
- أن يكون الصوفي في حال السكر .
- أن يصل في سكره إلى الإتحاد بالمطلق .
- أن يسمع هاتفا إلهيا يدعوه إلى الإتحاد .

ثم يقول بعد ذلك :

ترى الرجال معنا حضور وقلوبهم معمرا

تراهم الكل رقوص والسر فيهم قد ظهر

فالسكر إذن في عرف الصوفية هو حال من الوجد لا تنسب في حقيقة أمرها إلى البرهان، بل إلى العيان والذوق، وبالتالي تقع بمعزل عن الشعور والوعي، ولذلك تصبح الألفاظ الموظفة في هذا السياق العرفاني ذات أنساق دلالية دقيقة ،ورمزية تعبر عما يعتلج في نفسه الشاعر المتصوف من مشاعر الوجد ،والحضرة، والخلوة ،والذوق ،والحبيب ،والرضا ،والسر، والرقص وكلها رموز صوفية مستمدة من المعجم العرفاني .

فالتجربة الشعرية الصوفية تقوم على جمالية الذوق الخاصة باللغة في تعبيرها عن مقامات العرفان ،الذي لا يتجلى للصوفي إلا بالذوق الذي هو التجربة والأداة في الآن نفسه " وبما أنه لا يمكن معرفة ما ينتج عن الذوق إلا بالذوق فقد انحصرت القناعة بهذا العلم بالذائق " [25] .

ونختم حدثنا عن رمز الخمرة في شعر الششتري بهذا الموشح الرقيق الذي ضمنه الشاعر أوصاف الخمرة الأزلية المتجاوزة للمعطى الحسي، المجردة من عناصر الكثافة المادية فهي خمرة صافية نورانية مشرقة كالشمس اشتاقت إليها روح الشاعر، حتى اتحدت بها في وهج الجمال العلوي يقول الششتري [26].

دارت عليك الأقداح بـــروح وراح
فعج على الخمار لخلـــع العذار
تبصر سنا الأسرار إذا ما تـــدار
وعالم الأسرار يلح لك جـــهار
والراح روح الأرواح ما فيـها جناح
دارت عليك الأقداح بـــروح وراح

ب - رمز المرأة (الرمز الأنثوي):

يُعد رمز المرأة من المكونات الأساسية للكتابة الصوفية قديما وحديثا، فدارس الأدب الصوفي يظفر بشعر وفير بدت فيه المرأة رمزا موحيا دالا على الحب الإلهي، ولذلك فالشعر الصوفي من هذه الوجهة يعد شعرا غزليا تم للصوفية فيه التأليف بين الحب الإلهي ،والحب الإنساني ،والتعبير عن العشق في طبيعته الروحية من خلال أساليب غزلية موروثة، قد اكتمل تكوينها، و نضجها الفني على أيدي شعراء الغزل العذري، فالمرأة في نظر الصوفية مخلوقة من أكمل المخلوقات جمالا وجلالا ،لذالك خصوها بقداسة عظيمة ،فهي رمز يقبل التجليات الإلهية فالمرأة هي التي تسمح للرجل المجزأ أن يتوحد بذاته وحبها ،هو صعود نحو المقدس[27] والمرأة عند الصوفية هي ستر أو سحر هي مالا ينال ، هي علاقة العاشق مع الله يتحول إلى علامة بين محب ومحبوب، ويصبح الحب كشف كمثل الكشف الذي يتحقق بالكلام الإلهي [28]

وقد وجد الصوفية في الحديث النبوي الشريف ما يسوغ توظيفهم لجمالية الرمز الأنثوي ،ففي قوله (صلى الله عليه وسلم) : " حبب إلي من دنياكم ثلاثة ، النساء والطيب وجعلت قرة عيني في الصلاة " يفسر محي الدين ابن عربي الحديث الشريف وفق منهج استبطاني لرمز الأنوثة فيقول " أنه (صلى الله عليه وسلم) غلب التأنيث على التذكير، لأنه قصد التهمم بالنساء فقال ثلاثة ولم يقل ثلاث ،وعادة العرب أن تغلب التذكير، فغلب (صلى الله عليه وسلم) التأنيث على التذكير، ثم أنه جعل الخاتمة نظيرة الأولى في التأنيث، وأدرج بينها المذكر ، فإن الرجل مدرج بين ذات ظهر عنها ،وبين امرأة ظهرت عنه ، فهو بين مؤنثين تأنيث ذات ، وتأنيث حقيقي ، كذلك النساء تأنيث حقيقي، والصلاة تأنيث غير حقيقي والطيب مذكر بينها كآدم بين الذات الموجودة، هو عنها ،وبين حواء الموجودة عنه ... فكن على أي مذهب شئت فإنك لا تجد إلا التأنيث يتقدم عند أهل الملة "[29]

فإذا كانت المرأة في التجربة الصوفية رمز للحب الإلهي ،فإن هذا الحب مجرد عن شخص المحبوب فلا يحد من حيث ذاته ،وإنما يحد من حيث نتائجه وأثاره ، ولوازمه ،ولكي نعرف الحب يجب أن نتذوقه، فكما أن الشاعر العذري لا يحب لشيء مادي في محبوبه ،وإنما تتعلق روحه بمن يحب، كذلك الصوفي ،إنما يحب الذات الإلهية كمن منجذب نحوها لا طمعا في الجنة

ولا خوفا من النار متطلع إلى مقام المحبة الإلهية في ثقة واطمئنان ، وهذا هو الذي أطلق عليه ابن عربي حب الحب أي الاشتغال بالحب نفسه وليس بالمحبوب .

ولا بأس أن نقف عند بعض أشعار الششتري لمعرفة طريقته الفنية في تشكيل الرمز الأنثوي في نصوصه يقول في إحدى موشحاته[30].

حبيبي مالو ثاني ولا عليه رقيب
دنا مني وأدناني حاضر لا يغيب
رضيت بالذي يصنع واسندت اليه
وبه نصل وبه نقطع وبه نثني عليه
وبه نرى وبه نسمع وروحي بين يديه
إشاراتي لمحبوبي ورمزي يفهموا
ومن لم يفهم المعنى ويجهل علموا
وسر الحب والنجوى عن الغير اكتموا
فسر الحب رباني ومعناه غريب
إذا نخلوا بمحبوبي نغيب عن الوجود
ونقرأ سر مكتوبي في سوره العقود
وبه يحلالي مشروبي وبه نحني الورود

ففي الأبيات السابقة تلويح برموز العشق في جمالية فريدة في الألفاظ والتراكيب مشحونة بالمعاني الذوقية، وشوقه الأبدي إلى الله وحده ،ففي خضرة المحبوب يغيب الشاعر عن الوجود ويفنى في من يحب، فلا يحس بعالم الملك والملكوت، فيستغرق في عظمة الباري ومشاهدة الحق[31].

فهذه التجربة الشعرية حافلة بمفارقات عرفانية صوفية تمتزج بتيار العاطفة المشبوب، وتوحي بالجمال متجلي في طابع جلالي وبالجلال ظاهرا في طابع جمالي وتنبئ القصيدة بأن الشاعر قد انشرح صدره، واتسع قلبه على نحو إنساني رحيب، حتى صار مسرحا للحب، ومرآة تبدي صور المحبوب في توافق وانسجام"بين الرؤية الروحية للمحسوس والرؤية الحسية للروحي"[32]

يقول الششتري في إحدى قصائده متقمصا للمعاني العرفانية الناجمة عن عشقه ليلياه [33]

غير ليلي لم ير في الحي حي سل متى ارتبت عنها كل شي
كل شيء سرها فيه سري فلذا يثنى عليها كل شي
قال من أشهد معنى حسنها إنه منتشر والكل طي
هي كالشمس تلالا نورها فمتى ما إن ترمه عاد في
هي كالمرآة تبدي صورا قابلتها وبها ما حل شي
هي مثل العين لا لون لها وبها الألوان تبدي كل زي
جورها عدل فإما عدله فهو فضل فأسترد منه أخي
ولنا من وصها جمع ومن بعدها فرق هما حال إلي
لبسها ما أظهرت من لبسها فلها في كل موجود مري

أسفرت يوما لقيس فانثنى قائلا يا قوم لم أحبب سوي

أنا ليلى وهي قيس فأعجبوا كيف مني كان مطلوبي إلي

في القصيدة ألوان من الرمز العرفاني، الذي خلعه الشاعر علي ليلياه معبرا عن قمة إتحاد ذاته بذات محبوبه ،حتى أضحى لا يفرق بين أفعاله وصفاته ،وأفعال وصفات الله ،وهذا ما عبر عنه الصوفية بمصطلحي الجمع والفرق، قد أشار إليهما الششتري في ثنايا القصيدة السابقة في قوله : " ولنا في وصلها جمع ومن بعدها فرق " فالفرق ما نسب إليك والجمع ما سلب عنك ومعناه ما يكون كسبا للبعد من إقامة للعبد، وما يليق بأحوال البشر فهو فرق ، وما يكون من قبل الحق من إبداء معان وإسداء لطف وإحسان فهو جمع " [34]

فحالة الجمع هذه من المفارقات اللغوية الجريئة التي أطلق عليها الصوفية اسم الشطحات وهذه الأبيات عبرت عن الحال ،التي يصبح فيها العبد وربه شيئا واحدا لامتزاج الصفات البشرية بالصفات الإلهية ،فيرى الشاعر قربه من ربه واتصافه بصفاته، فكل الأسماء الإلهية تصبح كسبا له ،ومن ثم يصبح المحب عين حبيبه وشمسه ومرآته ،التي يرى فيه ذاته، فلا ضير بعد اتحادهما أن يتبادلا الأدوار. فأنا ليلى وهي قيس – وتتم هذه – المكاشفة في هيئة طائف يأذن للروح أن يحل دورها مكان دوره ،فتتحدث على لسانه ،ويعلن أنه يبادلها حبا بحب ،وأن الإنية قد رفعت بينهما فصارا شيئا واحدا " [35].

وهكذا فجمالية الرمز الأنثوي في الشعر الصوفي –كما رأينا – تقوم على فكرة التناقض، و الإتحاد في أن واحد، ويعني ذلك أن الشيء لا يفصح عن ذاته إلا في نقيضه ،إذ يوحد الصوفي بين الداخل والخارج، وبين الذات والموضوع ،وبين الواقع والمثال، وبين الرجل والمرأة ،وبين المحدود والمطلق، وهذا الدور الجمالي لا تقوى على أدائه إلا لغة الصوفيين المشحونة بالرموز والمفارقات ،التي لا تقدم أفكارا بالمعنى المنطقي، وإنما تقدم أحوالا ومقامات .

خلاصة القول:

إنَّ جمالية الرموز الصوفية في شعر الششتري تعبر عن تجربة عرفانية فريدة بلغة رائقة تكشف عن حس مرهف شديد الصلة بنبضات قلب الشاعر، وروحه الطاهرة، مشحونة بتجليات الفيض، والوجد الصوفي ومن ثم تستعصي هذه الرموز الصوفية على التأويل والفهم إلا لمن أوتي القدرة على الاختراق، والتفاعل مع النص الشعري الصوفي متمثلا لتجربته في كل أبعادها الدلالية والفنية

المصادر والمراجع

---

[1] - نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب: المقري . طبعة المكتبة التجارية 1937م، ج7 . ص620

[2] -- ديوان أبي الحسن الششتري – شاعر الصوفية الكبير في الأندلس والمغرب . تحقيق الدكتور سامي النشار . ط1 . دار نشأة المعارف : مصر 1960 م،ص173

[3] - ضيف شوقي، تاريخ الأدب العربي– عصر الدول والإمارات (الأندلس). ط3 دار المعارف : مصر 1969م.ص.. ص 368.

[4] - ديوان أبي الحسن الشتتري ، المصدر السابق، مقدمة الديوان،ص-ص،01 -29

[5] - لسان العرب: ابن منظور.. مادة رمز

[6] -نقد النثر: قدامة بن جعفر. نشر مكتبة الخانجي مطبعة أنصار السنة .1948م.ص.ص62.61

[7] - العمدة في صناعة الشعر ونقده: القيروان ابن رشيق .. نشره محمد بدر الدين النغساني مطبعة السعادة القاهرة. 1907 .ج1 .ص206

[8] الرسالة القشيرية : القشيري عبد الكريم ..تح .د/عبد الحليم محمود و محمود بن الشريف .دار الكتاب العربي ط1: لبنان 1966.ص 40

[9] المثل السائر في أدب الكاتب و الشاعر : ابن الأثير نشره و محمود توفيق الكتبي.مطبعة حجازي :القاهرة1935م .ج2.ص 414

[10] - أسرار البلاغة في علم البيان: الجرجاني عبد القاهر. مكتبة محمد علي صبيح . القاهرة ط6، 1959م .ص125

[11] - لسان العرب: ابن منظور. .مادة صوف

[12] - كتاب الآداب: البيهقي (أبوبكر أحمد بن الحسين).. .تحقيق أبوا عبد الله السعيد المندوه مؤسسة المكتب الثقافية . بيروت لبنان ط1، 1988م . ص201

[13] - حلية الأولياء وطبقات الأصفياء :الأصبهاني (أحمد بن عبد الله) . دار الكتاب العربي بيروت لبنان.ط2، 1967م . مج01 . ص 340

[14] - عوارف المعارف : السهروردي (شهاب الدين) .. دار الكتاب العربي : بيروت لبنان 1966م. ط1.ص61

[15] - ماهية الوعي الصوفي: اليوسف سامي اليوسف .. مجلة المعرفة سوريا السنة 33 ع373 أكتوبر 1944 م . ص15

[16] - الفتوحات المكية: ابن عربي محي الدين .. تحقيق عثمان يحي، القاهرة : 1972م.ص 139

[17] - المصدر السابق : القشيري.. ص 39

[18] - الديوان: الششتري . . ص129

[19] - الديوان :المصدرالسابق، ص:36

[20] - . الحلاج : غالب مصطفى. مؤسسة عز الدين للطباعة والنشر. بيروت لبنان: 1482هج، ص73

[21] - الديوان: الششتري..ص 101

[22] - الرمز الشعري عند الصوفية : نصر عاطف جودة . المكتب المغربي لتوزيع المطبوعات : القاهرة 1998م . ص 2321

[23] - اللمع : السراج أبو نصر تح . د/ عبد الحليم محمود. طبعة 1914 م . ص346

[24] - شطحات صوفية: بدوي عبد الرحمان.. القاهرة 1994م . ص04

[25] - المعجم الصوفي : الحكيم سعاد. .مادة ذوق بيروت 1981م

[26] - الديوان : الششتري . . ص139

[27] - الديوان : الششتري .المقدمة، ص24.

[28] - الصوفية و السريالية : أدونيس علي أحمد سعيد ، دار الساقي بيروت لبنان ط1 ، 1996م ،. ص110

[29] - فصوص الحكمة : ابن عربي محي الدين. موفم للنشر. الجزائر 1990م .ص 152 ،153

[30] - الششتري :المصدر السابق. ص*111*

[31] - فصوص الحكمة، المصدر السابق،ص156 .

[32] - الرمز الشعري عند الصوفية،نصر عاطف جودة،ص207 .

[33] - الديوان المصدر السابق،ص94

[34] - الديوان: الششتري . المقدمة ص82

[35] - الرسالة : القشيري . . ص 35